صورة الآخر الأجنبيِّ في شعر محمود شوقي الأيوبي

عهود محسن حمود العتيبي

الملخص

يتناول البحث صورة الآخر الأجنبي في شعر محمود شوقي الأيوبي في النصف الأول من القرن العشرين، وهي الحقبة الزمنية الأهم في تشكيل الدول على صورتها الحالية في التاريخ الحديث؛ حيث عانت فيها معظم البلاد العربية من الأطماع الاستعمارية الغربية في أراضيها، ولذلك جاءت معظم صور الآخر الغربي في الشعر العربي سلبية نتيجة هذه الأطماع، لكن حضور الآخر الغربي في شعر الأيوبي لم يكن تقليديًّا نمطيًّا، بل فاعلاً ومؤثرًا ينبثق من فلسفة خاصة به تخلق تلازمًا بين الدال والمدلول، وتجسد فكره وآراءه إزاء الآخر بشقيه الإيجابي والسلبي، ولعل حضور الآخر على اختلافاته العرقية والدينية في شعر الأيوبي، وآرائه المنصفة إزاءه سلبًا وإيجابًا تؤكد موضوعية الشاعر وتجرده في الطرح، على أنها تشير أيضًا إلى الحس القومي العالي لديه، ومناهضته الاستعمار الغربي للدول العربية، والدول الإسلامية، والدول غير الإسلامية أيضًا.

وجاءت الصورة السلبية للآخر عند الأيوبي أكثر حضورًا من الصورة الإيجابية، وكانت البلاد العربية وقتئذٍ ترزح تحت وطأة الاستعمار الغربي بأطماعه التوسعية لإعادة هيمنة عصر الإمبراطوريات الاستعمارية إلى الواجهة السيادية مجددًا؛ فجاءت الصور السلبية متناولة الآخر الفرنسي والبريطاني والألماني والهولندي واليهودي، وجاءت الصور الإيجابية متمثلة في مواقف الآخر السويدي والآخر الروسي الإيجابية من المعتركات الحربية في البلاد العربية، وبخاصة إزاء القضية الفلسطينية والعدوان الثلاثي على مصر عام 1956م، إضافة إلى مواقف الآخر الإندونيسي والباكستاني والأفغاني، وتأييد ثوراتهم الانفصالية الحالمة بالاستقلال.

The image of the foreign other in the poetry of Mahmoud Shawky Al Ayoubi

Ohood Mohsen Hamoud Al Otaibi

Abstract

This research deals with the other foreign image in the poetry of Mahmoud Shawky Ayoubi in the first half of the twentieth century, and is the most important era in the formation of states on its current form in modern history. Where sufferers in the most of the Arab countries of the Western colonial ambitions its territory, Therefore most of the image of other the foreign it come in Arabic poetry were negative as a result of these ambitions. But other Western presence in the Ayoubi Poetry was not traditionally typically, But an active and influential emerges from its own philosophy of creating a correlation between the signifier and the signified, And it embodies the ideas and views about the others, both positive and negative. Perhaps the presence of other ethnic and religious differences in the Ayoubi Poetry, The opinions of fair about it negatively and positively confirm the objectivity and impartiality in the poet subtraction,

The negative image of another when Ayoubi was more present than a positive image, and the Arab country at the time straining under the weight of Western colonialism Botmall expansion to re-domination of the era of colonial empires to the sovereign front again. Came the negative images dealt with the other French, British, German and Dutch and Jewish, came the positive images represented in the other positions of the Swedish Russian and the other positive from Almaatarkat war in the Arab country, especially regarding the Palestinian issue and tripartite aggression against Egypt in 1956, in addition to other positions of Indonesian and Pakistani and Afghan, and support Thorathm dreamy separatist independence.

تمهيد

لم تحظ صورة الآخر في الشعر العربي الفصيح بدراسات وافية، بالرغم من حضورها الكثيف وانعكاسها في كثير من دواوين الشعراء العرب على امتداد العصور، فلم تخل حقبة زمنية في التاريخ العربي من وجود الآخر الأعجمي فيها وتدخله في شؤونها، أو امتزاجه وتعايشه مع العربي في حقبات أخرى. كما أن قضية حضور الآخر في الشعر ليست قضية عامة يمكن إطلاق الأحكام عليها بناء على نماذج شعرية مختارة من عصور متفرقة، بقدر ما هي قضية رأي خاصة ترتبط بنظرة الشاعر نفسه وموقفه الشخصي إزاء هذا الآخر، وهو في كثير من الأحيان يعكس موقف شريحة كاملة من مجتمعه وقتئذٍ، لكون الشاعر مرآة عصره كما قيل عنه.

وحين يرد ذكر "الآخر"، فغالبًا ما يحضر في أذهاننا أن المقصود هو الغربيُّ تحديدًا، بيد أن هذا اللفظ مصطلح فضفاض يدخل ضمنه كل ما يشير إلى غير الذات والأنا الفردية والجمعية، فيكون غير العربي تارة، والعربي غير المسلم تارة أخرى، والمسلم غير الشرقي أخرى، وكل ما هو منفصل عن الذات في المستوى الفردية، لكنه في المستوى الجمعية يفضي إلى رؤية مشتركة وهي دلالته على كل مَن هم غيرنا نحن العرب. وإننا في هذه الدراسة سنتقصى أثر صورة الآخر المقابل للذات الجمعية في دواوين الشاعر الأيوبي.

ونظرًا لأهمية هذه القضية في ذاتها، ثم القيمة التاريخية التوثيقية التي تحملها القصائد الشعرية التي صورت الآخر في حقبة زمنية محددة، سواء أكانت بالسلب أم بالإيجاب، فإن البحث يتجه إلى دراسة صورة الآخر في شعر الشاعر الكويتي محمود شوقي الأيوبي، نظرًا لغزارة شعره، وارتفاع وتيرة الحس القومي لديه، الذي برز في عناوين بعض دواوينه الشعرية، إضافة إلى سعة اطلاعه واتساع مداركه نتيجة الأسفار التي قام بها خارج إطار الوطن العربي، واطلاعه على الآخر عن قرب وكثب، مما جعل موقفه إزاءه موضوعيًّا وتجريديًّا دون تحيز، وهو ما سنحاول تتبعه في سلسلة أعماله الشعرية، إما بإثباته أو نفيه.

أهمية البحث ومسوغات اختياره

تأتي أهمية البحث من جانبين اثنين: الأول من أهمية القضية التي تتناول صورة الآخر من خلال الشعر في حقبة زمنية اتسمت بالمواجهات الحربية، وهي النصف الأول من القرن العشرين أمتدادًا إلى عام 1966م تاريخ وفاة الشاعر، مما يرشح قصائد الشاعر المعاصر لهذه الأحداث العصيبة أن تكون وثيقة تؤرخ لهذه الحقبة، وتبث آراء شريحة من المجتمع العربي إزاء الآخر الغربي. والثاني من قلة الدراسات التي تناولت قصائد الشاعر الأيوبي بتأنٍ ودقة، بالرغم من إنتاجه الشعري الغزير، وشاعريته التي جعلته من أبرز شعراء البلاط السعودي الحاكم في النصف الأول من القرن العشرين.

إشكالية البحث وفرضياته

تبدو الصورة العامة للآخر الغربي في الذهن العربي صورة قاتمة موشاة بذكريات الضحايا والمفقودين، نتيجة الحملات العسكرية القمعية التي شنتها الدول الغربية وفي مقدمتها فرنسا وبريطانيا وإيطاليا على الدول العربية بغية تقسيمها وفرض الوصاية وتطبيق حكومات الانتداب واقتسام ثرواتها الطبيعية والباطنية، ومن الطبيعي أن يجعل هذا من صورة الآخر سوداوية في أعين الشعراء، خصوصًا بعد نكبة فلسطين التي تآمر الغرب عليها لاقتطاعها من الجسد العربي لتكون وطنًا قوميًّا ليهود العالم الذين ضجت بهم أوروبا، وضاقت بهم ذرعًا. فهل كان للشاعر الأيوبي الرأي السلبي نفسه إزاء صورة الآخر الغربي؟ أو أنه كان منصفًا في تقييم هذا الآخر بحسب مواقفه من القضايا العربية، ومدى انغماس يديه في الدماء البريئة؟

منهج البحث

إن المنهج المتبع في هذه الدراسة منهج استقراء موضوعي ثم وصفي تحليلي للوقوف على آراء الشاعر الأيوبي إزاء صورة الآخر، ويقوم على تتبع مواطن ورود صورة الآخر في دواوين الشاعر الأيوبي وقصائده المنشورة في المجلات والدوريات، ثم تقسيمها موضوعيًّا بحسب الشخصيات الغربية الواردة فيها، ثم فرزها بحسب مواقف الشاعر إزاء هذه الشخصية بين السلب والإيجاب، والوقوف بالتحليل على الأسباب التي دفعته إلى اتخاذ موقف معين تجاه شخصية بعينها مقابل موقف آخر تجاه شخصية أخرى.

حدود البحث

- **الحدود الزمانية**: في النصف الأول من القرن العشرين، وتحديدًا حتى عام 1966، وهي الفترة التي عاش فيها الشاعر محمود شوقي الأيوبي، كما أنها كانت حقبة إعادة هيكلة خريطة العالم بحسب الأهواء السياسية والمطامع الاستعمارية واستعراض القوى العسكرية بحثًا عن السيطرة والامتداد وإعادة زمن الإمبراطوريات إلى الواجهة مجددًا.
- **الحدود المكانية**: يمتد الفضاء المكاني في قضية صورة الآخر إذ لا ينحصر في مكان محدد، فيكون المكان الشعري هو المسيطر والقائم في هذه الدراسة.
- **الحدود الموضوعية**: قصائد الشاعر محمود شوقي الأيوبي، واستقراء كل ما أتى الشاعر على ذكره من صور الآخر، ثم اختيار ما يوائم الدراسة.

- **هيكل البحث**

أولاً: تعريفات البحث.

- مفهوم الآخر في اللغة والاصطلاح.
- ترجمة الشاعر محمود شوقي الأيوبي.

ثانيًا: صورة الآخر بحسب الهوية القومية.

- الآخر العثماني.
- الآخر الأوروبي.
  - الآخر الإنجليزي.
  - الآخر الفرنسي.
  - الآخر الألماني.
  - الآخر الهولندي.
  - الآخر السويدي.
- الآخر الروسي.
- الآخر في شرق آسيا وجنوب شرقها.

ثالثًا: صورة الآخر بحسب الهوية الدينية.

- الآخر اليهودي.
- الآخر النصراني.

رابعًا: أثر الآخر في لغة الشاعر الأيوبي.

النتائج والتوصيات.

هوامش البحث.

الدراسات السابقة والموازية

حظيت صورة الآخر في الشعر العربي بدراسات قيمة في العقدين الأخيرين، كان من أبرزها:

- فوزي عيسى، **صورة الآخر في الشعر العربي**، ط1، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2011م، طبعة خاصة في مناسبة انعقاد ملتقى "الشعر من أجل التعايش السلمي" في مدينة دبي 16- 18 أكتوبر 2011م.
- محمد المختار، **صورة الآخر في شعر المتنبي**: نقد ثقافي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2009م.
- ماجد النعامي، **صورة الآخر في شعر انتفاضة الأقصى**، ط1، بحث مشارك في أعمال المؤتمر العلمي الرابع لكلية الآداب بجامعة غزة الإسلامية، مايو 2009، ص 613- 665.
- نجم عبدالله كاظم، **الآخر في الشعر العربي الحديث: تمثل وتوظيف وتأثير**، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- عمَّان، 2010م.
- سعد فهد الذويخ، **صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي**، ط1، عالم الكتب الحديث- جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، 2007م.

- يحيى ولي فتاح حيدر، "الآخر في الشعر العربي الحديث (من نكسة حزيران إلى أخريات الألفية الثانية) حضور أم مرور"، **مجلة الأستاذ**: فصلية محكمة تصدر عن كلية التربية- ابن رشد للعلوم الإنسانية- جامعة بغداد، العدد 204، المجلد الأول، 2013م/ 1434هـ، ص 61- 98.

أولاً: تعريفات البحث

- **مفهوم الآخر**: لغةً: بمعنى غير، كما حددها ابن منظور بقوله: "رجل آخر وثوب آخر"[1]. أما اصطلاحًا: فإنه "يستخدم للدلالة على مجموعة الخصائص والسِّمات والمعتقدات والسلوكيات والأفكار التي تنسبها للآخرين سواء كانوا من الأفراد أو الجماعات والشعوب"[2]. وإن هناك تلازمًا بين مفهوم صورة الذات –الأنا- ومفهوم صورة الآخر، حيث يستدعي أي منهما تلقائيًّا حضور الآخر، ووجود أي منهما ضروري لحضور الآخر، فالآخر يشكل أفقًا للذات وجزءًا من نظتنا إليها، سواء تقدم الآخر باعتباره شريكًا مسالمًا أو في هيئة كيان غاز، أو في صفة محتل متغطرس أو في صورة مفاوض، فهو دائم الحضور في المجال العام للوعي بالذات[3].

ولأن مصطلح الآخر واسع وعام الدلالة في إشارته إلى كل ما يقابل الذات على جميع المستويات وفي جميع التصنيفات، فإننا سنقتصر في بحثنا على ما يقابل الذات العربية الجمعية في المستويين العرقي والديني.

وانطلاقًا من هذا التحديد، فإن الآخر المقابل للذات العربية هو الأعجمي، وقد حدد ابن منظور هذا في موضعين اثنين، الأول في تعريفه للعرب، "أنهم جيل من الناس معروفٌ خلاف العجم"[4]. والثاني في تعريفه للعجم: "العُجم والعَجم خلاف العُرب والعَرب، والأعجم هو الذي لا يفصح ولا يبين في كلامه وإن كان عربي النسب، أما الأعجمي فهو الذي من جنس العجم أفصح أم لم يفصح"[5]. فالأعجمي هو آخر للعربي عند ابن منظور.

- **ترجمة الشاعر**: محمود شوقي عبد الله الأيُّوبي (1901 – 1966م)، ولد في الكويت، وتوفّي فيها. تلقّى علومه الأولى في مدرسة زكريَّا الأنصاريِّ، ثمَّ تتلمذ بالمدرسة المباركيَّة وتابع تحصيله فيها. سافر إلى مدينة البَصرة، وتعلَّم فيها فنَّ الطباعة، والتحق بدار المعلّمين ببغداد، وأنهى دراسته عام 1918م. عاش في الكويت والعراق وسوريَّة ولبنان وفلسطين ومصر وإيران والسعوديَّة وإندونيسيا ولندن والبحرين. ظلَّ يمارس أعماله في إندونيسيا لمدَّة واحد وعشرين عامًا، حتَّى عاد إلى الكويت عام 1950م على إثر الثورة الإندونيسيَّة على الاحتلال الهولنديِّ.

له عدد من الدواوين المطبوعة هي: "الموازين في الأخلاق ونظام الحياة"، و"رحيق الأرواح"، و"الأشواق"، و"هاتف من الصحراء"، و"ألحان الثورة"، و"ديوان الملاحم العربيَّة"، وله قصائد نشرتها صحف ومجلَّات عصره، وله عدد من الدواوين المخطوطة: "الينابيع"، و"الصَّباح الجديد"، و"أحلام الخليج"، و"أغاني الحمى"، و"فردوس الشعر".[6]

ثانيًا: صورة الآخر بحسب التصنيف العرقي والانتماءات القومية

الآخر العرقي في مفهوم الجغرافية السياسية والهوية الوطنية هو انتماء مجموعة من البشر إلى طائفة أو جماعة ليكونوا شعبًا يحمل سمات مشتركة في إطارٍ جغرافيٍّ واحد، يميِّزه عن غيره من الشعوب الأخرى. والعِرقُ في اللغة: "عِرقُ كلِّ شيءٍ أصلهُ، والجمعُ: أعْرَاق وعُرُوق. ورجلٌ مُعرِقٌ في الحَسَبِ والكَرَم، أي عَرِيقُ النَّسبِ وأصيلٌ"[7].

سنتناول في هذا المبحث صورة الآخر المميز عرقًا وقومية، كالعثمانيين، والأوروبيين وما يضمون من العثمانيين والإنجليز والفرنسيين والهولنديين، ثم الروسيين ، إضافة إلى الآخر في شرق آسيا وجنوب شرقها. وسنعرض حضور صورتهم في أشعار الأيوبي بشيء من التفصيل كما يأتي:

- **الآخر العثماني**: لم يكن موقف الأيُّوبيِّ إزاء وجود الآخر العثمانيِّ في المنطقة العربيَّة إيجابيًّا، حيث إنه لا يرى دولتهم خلافة إسلامية مثل ما كان يراها معاصره خالد الفرج[8]، بل استعمارًا واحتلالاً للبلاد العربيَّة، وما العرب في ظلِّ هذا الاحتلال إلَّا عبيدٌ تحت إمرة السلطان العثمانيِّ، فقال:

انْظُرْ إلى دَارَةِ العُرْبِ الأُلى صَدَحَتْ أخْلَاقُهُمْ هَبَّتِ العَلْيَا تُحَيِّيْهَا
كَانُوا عَبِيْدَ "بَنِي أرْطُغْلَ" رَائِدُهُمْ جَهْلٌ يَفُتُّ بِأعْضَادٍ وَيَفْرِيْهَا[9]

يشير الشاعر إلى الأتراك العثمانيين بقوله (بني أرطغل)، منتقدًا العرب المنقادين لإمرتهم كالعبيد.

ويرى د. خليفة الوقيان أنَّ الباحثين لم يعثروا على شعراء كويتيين تناولوا فترة الحكم العثمانيَّة[10] -وربما عنى بذلك أشعار التنديد بجرائمهم، وقصائد الدعوة إلى التحرُّر من الحكم العثمانيِّ- سوى إشارة إلى وحشيَّة جمال باشا السَّفَّاح[11]، وردت في ثنايا قصيدة للشاعر الأيُّوبيِّ، حيث قال في بعض أبياتها منددًا بوحشيَّته وهمجيَّته، وكيف أنَّها كانت البداية التي أيقظت الضمير العربيَّ، والشرارة الأولى لإعلان الثورة العربية على الدولة العثمانية وفي مقدمتها جمال باشا:

حتَّى إذَا هَاجَ مَقْتُونًا بصَوْلَتِهِ "جَمَالُ" يَشْنُقُ مِنْ أحْرَارِهَا فِيهَا
ثَارُوا وَهَبُّوا جَمِيعًا مِنْ مَرَاقِدِهِمْ وَهَدَّمُوا مِنْ قِلَاعِ الظُّلْمِ عَالِيهَا
سَارَتْ مَوَاكِبُهُمْ نَشْوَى يُؤَرِّقُهَا شَوقُ التَّحَرُّرِ مِنْ أيْدِي أعَادِيهَا[12]

لم يكن حضور الآخر العثماني غزيرًا في شعر الأيوبيِّ، خلا إشارة ذكرناها في موضعها توضح موقفه من العثمانيين في تلك الحقبة الزمنية المعقدة سياسيًّا، بيد أن ما يلفت انتباهنا هو ارتباط ذكر سلبية الآخر العثماني برغبة الآخر العربي بالتحرر والاستقلال السيادي، ولعل أن المرحلة الزمنية كانت مناسبة لبناء هذا الرأي في ذهن الأيوبيِّ، حيث عصفت الثورات العربية في مختلف أرجاء الدول العربية داعية إلى التحرر من فك الاستعمار بمختلف أشكاله، فكان الأيوبي من دعاة التحرر عمومًا، ويبني رأيه بحسب الجهة التي يقف فيها الآخر من الحرية.

- **الآخر الأوروبي**: شهد الوطن العربيُّ في النصف الأول من القرن العشرين أحداثًا سياسيَّة دمويَّة ومواجهات عنيفة بين العرب والمستعمرين القادمين من الغرب؛ إذ كان المستعمر الأجنبيُّ يرى الأرض العربية مباحة أمام مطامعه التوسعية، فجرَّ جيوشه مُغتصبًا أرضًا ومفتعلاً فتنة ومعتديًا على سكَّان البلاد الأصليِّين، لزيادة رقعة توسعه وزيادة مصادر دخله بالظلم والتَّعسُّف. مما أرسخ صورة نمطية سلبية عن الآخر الغربي في الأذهان العربية، دون تمييز بين صالح وطالح، كما عبر الأيوبي عن ذلك في قصيدته "الشُّهداء" التي نظمها عام 1929م فاضحًا جرائم المستعمرين الغربيين، بقوله:

فيَا مُثِيْرِي حُقُودَ (الغَرْبِ) وَيْلَكُمُ لَكُمْ مِنَ (الغَرْبِ) أَعْضَادٌ وَأَخْدَانُ
مَاذَا جَنَى البطلُ الرِّيْفِيُّ يَوْمَ دَعَا قومًا هُمُ في دِيَار (الغَرْبِ) (إسْبَانُ)
في كُلِّ يَوْمٍ لَكُمْ في (الشَّرْق) مَجْزَرَةٌ يَشِيْبُ مِنْهَا صَبِيَّاتٌ وَصِبْيَانُ[13]

يصب الشاعر حقده وغضبه على الغرب جميعًا في البيت الأول، لما اقترفته أيدي بعضهم من جرائم في المنطقة العربيَّة، كالإسبان في بلاد المغرب العربي. وانعكست نظرته من الآخر الغربي جلية في أثناء الحرب العالمية الثانية، والتي كان طرفا الصراع فيها يتبعان الآخر الغربي، فرأى الشاعر أن الغربَ مُذنبٌ بعامَّته في هذه الحرب، وذلك في قوله:

ثَعَالِبُ الغَرْبِ بَاتَتْ في مَآربِهَا خَسْرَانَةً لَمْ يُفِدْ مِنْهَا تَفَانِيْهَا[14]

وصف الشاعر الآخر الغربي بالمكر في تصويره لهم بأنهم ثعالب، ولعل أن الشاعر يقصد هنا الآخر الفرنسي والآخر البريطاني، لأثرهما الاستعماري المباشر على الدول العربية. وقوله في أخرى مطلقًا التعميم على الآخر الغربي دون استثناء، ومشبهًا إياهم بالوحوش:

تَبًّتْ أَيَادِي وُحُوشِ الغَرْبِ وَيْحَهُمُ فَمَا لَهُمْ عِنْدَ رَبِّ النَّاسِ غُفْرَانُ[15]

يرجو الشاعر عقابًا إلهيًّا للآخر الغربي المنعوت بالوحش، ويكاد الشاعر يجزم بأنَّ الله لن يغفر لهم ما اقترفوه من مجازر وجرائم بحقِّ شعوب البلاد العربيَّة.

إن الموقف العام والحكم المطلق –في فكرة الأبيات السابقة- على الآخر الغربي دون تحديد، ناتج عما ترسخ لدى الذات العربية عمومًا من تشويه للصورة الغربية نتيجة موجهات إيديولوجية وعسكرية وقتئذٍ، وهنا لا يؤخذ على الشاعر هذا التعميم؛ إذ إن للآخر دورًا في تأسيس مرتكزات صورته النمطية لدى الآخر العربي المقابل، ولهذا لا يمكن بناء رأي ناقدٍ للشاعر العربي إذما سلك قضيته في العموم دون التخصيص، فالصورة النمطية للآخر العدو سلبية في الذهن العربي، وشائعة الاعتقاد في النصف الأول من القرن العشرين الذي يضج بالأحداث الاستعمارية المستنكرة، إنما يشير إلى الحس القومي اليقظ لدى الشاعر، وغيرته على أشقائه العرب.

وفي سياق صورة الآخر الأوروبي فصَّل الأيوبي الحديث عنها بحسب الدول الاستعمارية التي غزت معظم البلاد العربية، فكان موقفه منهم على النحو الآتي:

- **الآخر البريطاني**: يقول الشاعر الأيوبي متوعدًا إنجلترا بالويل نتيجة أعمالها الاستعمارية في البلاد العربية:

ويلٌ لإنجلترا خابت سياستها ولم تزل لهلاك الناس تبتكرُ[16]

يوضح الشاعر السبب في توعده لإنجلترا في سعيها المستمر لابتكار وسائل جديدة لهلاك الناس في كل مكان، وخصوصًا في البلاد العربية، وهو يشير هنا إلى دورها المشؤوم في توطين اليهود في فلسطين لتكون وطنًا قوميًّا ليهود العالم.

وفي عام 1956م نظم الأيُّوبيُّ قصيدته "ثورة البحرين" مشيدًا بالأبطال البحرانيين الذين هبُّوا لدحر المستعمر البريطانيِّ عن بلادهم، حيث ضاقوا ذرعًا بجرائمه وتدخلاته، فلم يستطيعوا الصبر على جرائمه وسياسته الجائرة المتعسِّفة، فأعلنوها ثورة عليه انتهت بهزيمته مدحورًا، قال:

تَمَرَّدْتُمْ عَلَى (الطَّاغُوتِ) لَمَّا أَهَاجَ عَلَيْكُمُ عَسْفَ اللُّدُودِ
فَكَانَتْ ثَوْرَةً حَمْرَاءَ تَشْوِي جَهَنَّمُهَا مَجَانِيْنَ (الحَقُودِ)
وَزَلْزَلْتُمْ (للاسْتِعْمَارِ) بُرْجَاأَقِيْمَ عَلَى الجَمَاجِمِ وَالحَدِيْدِ[17]

لم يسم الشاعر الآخر البريطاني باسمه الصريح تحقيرًا له، بيد أنه أشار إليه من خلال الصفات السلبية الدالة على الحقد الظاهر إزاءه، فتارة يصف الآخر بأنه (طاغوت) ثم (حقود) ثم (الاستعمار)، وجميعها تتجه نحو الصورة السلبية وتؤكد حضورها في ذهن الشاعر.

كما استغنى الشاعر عن ذكر الآخر البريطاني بالمسمى الصريح من باب التحقير، واكتفى بالإشارة إليهم نعتًا وتنديدًا إبان الثورة العراقيَّة في الموصل على المستعمر البريطانيِّ، فقال:

وَثَارَتِ المُوصِلُ الحَدْبَاءُ ضَارِبَةً مِيثَاقَ بَغْدَادَ[18] فِي وَجْهِ الأُلَى لُعِنُوا[19]

ثم إن الشاعر يصف الآخر البريطاني بالغدر والمكر، ولا يكتفي بالإشارة إليه بصفاته، بل إنه يسميه بحسب انتمائه العرقي، دون أن يطلق حكمًا عامًا على الآخر البريطاني في المطلق، فقال في قصيدته "الشهداء" التي نظمها بُعيد حادثة البُراق في القدس عام 1929م:

يَا وَيْحَكُمْ يَا (بَنِي سِكْسُونَ) إِنَّكُمُ غَدَرْتُمُ وَلَكُمْ لِلْغَدْرِ أَعْوَانُ[20]

حدد الشاعر الفئة المعنية بالذم من الآخر البريطاني، وهم (بنو سكسون)، والسكسونيّون هم أبناء القبائل الذين وفدوا إلى إنجلترا واستقرُّوا فيها، واتَّسموا بالهمجيَّة والاستعماريَّة وحُبِّ السيطرة. وبذلك لا يتعرَّض الشاعر للآخر البريطانيِّ بعامة، بل يخصُّ الثُّلَّة الاستعمارية التي صارعت من أجل إقطاع فلسطين من الجسد العربي لتكون وطنًا قوميًّا ليهود العالم.

وقوله أيضًا متناولاً شخصية وزير خارجيَّة بريطانيا آنذاك "آرثر جيمس بَلفُور" الذي كان السبب في استعمار اليهود لفلسطين من خلال الوعد الذي حمل اسمه "وعد بَلفُور"، والذي أرسله ضمن رسالة في تشرين الثاني عام 1917م إلى اللورد الصهيونيِّ الثريِّ "وولتر روتشيلد" يشير فيها إلى تأييد الحكومة البريطانيَّة إنشاء وطن قوميٍّ لليهود في فلسطين. فقال:

وَفِي فِلَسْطِينَ مِنْ (بَلْفُورَ) مَهْزَلَةٌ هُزَّتْ لَهَا مِنْ خِمَارِ الحِقْدِ أَدْقَانُ[21]

فالشاعر هنا يجنح إلى تخصيص الحكم على الآخر البريطاني، ويحصره في شخص بلفور، حيث يعتبره السبب الرئيس في احتلال فلسطين. وفي المجمل فإن حضور الآخر البريطاني كان حضورًا سلبيًّا نتيجة التصرفات البريطانية الاستعمارية التي أكدت هذه الصورة في ذهن الشاعر.

- **الآخر الفرنسي:**

امتدت أيادي الأطماع الفرنسية لتطال معظم البلاد العربية في النصف الأول من القرن العشرين، في سورية ولبنان والمغرب والجزائر وتونس وموريتانيا، مما جعل صورة الآخر الفرنسي قاتمة الحضور في الذهن العربي عمومًا، ولدى الشعراء على وجه الخصوص، فتارة كان الشاعر الأيوبي يصف الآخر الفرنسي بحكم مطلق عام، كما في قوله في قصيدته "الشُّهداء" التي نظمها عام 1929م:

هَذِي (فُرَنْسَا) بِسُورِيَّا الأَبِيَّةِ قَدْ سَرَى لَهَا بِحَدِيْثِ القَتْكِ رُكْبَانُ
تَحَكَّمَ (الوَحْشُ) فِي نَحْرِ الفَتَاةِ فَيَا وَيْحَ الفَتَاةِ، وَهَلْ لِلْوَحْشِ وِجْدَانُ؟[22]

ينعت الشاعر الآخر الفرنسيَّ المستعمر بالوحش، ويستعمل في الإشارة إليه الاسم الجامع للدولة (فرنسا)، وهذا الحكم المطلق رهينة بموقف القادة الفرنسيين في البلاد العربية، الذين يتحملون جريرة تشويه صورة دولة كاملة بناء على تصرفات استعمارية منكرة. بينما يشبِّه سورية بالفتاة الوادعة الآمنة، فكيف إذا تحكَّم الوحش في هذه الفتاة؟ فلا رحمة أو إنسانيَّة يمكن أن تتوقَّع منه. وفي قصيدة أخرى له يشير إلى نضال الشعب السوريِّ وبسالته في مواجهة الآخر الفرنسيِّ، حيث يقول:

وَبِسُورِيَا شَعْبٌ يُكَافِحُ لا يَنِي مُتَشَامِخًا يَسْقِي (الفَرَنْسِيْسَ) الثَّرَحْ
وَيُحَطِّمُ الأَغْلالَ وَهْيَ ثَقِيْلَةٌ بِعَزِيْمَةٍ جَبَّارَةٍ يَهْوَى الرَّبَحْ[23]

يستدعي الشاعر الآخر الفرنسي بلفظ (الفرنسيس)، وفي هذا الاستعمال تأويلان؛ الأول أن استعماله جاء مقيدًا بالوزن الشعري السليم، والثاني أن استعماله جاء في سياق دلالة التحقير والتصغير. كما استعمل الأيوبي بعض الصفات الكنائية للدلالة على الآخر الفرنسي، مثل (الطغيان)، وهي تؤكد الصورة السلبية في ذهنه إزاء هذا الآخر، حيث يقول:

هُمُ هُمُ القَومُ مَا ذَلُّوا وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا (لِطُغْيَانٍ) وَمَا سَمَحُوا
وَهُمْ أَذَاقُوا (فُرَنْسَا) يَومَ وَثْبَتِهِمْ نَارَ السَّعِيرِ فَأَقْعَى فَوقَهَا التَّرَحُ[24]

كما استعمل الشاعر تراكيب كنائية لتعزيز الصورة السلبية للآخر الفرنسي، فأطلق حكمًا عامًا سلبيًّا إزاء الفرنسيين بعامة، فقال:

أمَّا (فَرَنْسَا) (مَلاذُ الفِسْقِ) دَوَّخَهَا بَنُو الجَزَائِرِ مَنْ بالحَقِّ قدْ شَرُفُوا
وَهُمْ أذاقُوا (فَرَنْسَا) الحَتْفَ مُنْتَفِضًا يَنْقَضُّ كَالشُّهْبِ مَا هَانُوا وَمَا اخْتَلَفُوا[25]

صور الشاعر فرنسا بأنها ملاذ الفسق، وهو بذلك لا يستثني ظاهريًّا أحدًا من الآخر الفرنسي في الصورة الظاهرة، بيد أن الشاعر لا يلام في هذا، ففرنسا هي التي حددت مصير الآخر الفرنسي في الأذهان العربية ليكون بهذه السلبية المطلقة، نتيجة حملاتها الاستعمارية الجائرة على البلاد العربية.

بيد أن الشاعر الأيوبي لم يكن متزمتًا في موقفه من الآخر هنا، بل موضوعيًّا في تناوله وتجريديًّا في إطلاق أحكامه، حتى وإن اتجهت نحو العموم في جزء منها وقد عللنا سببه. ويتضح ذلك من تضمينه رمز الثورة الفرنسية (جان دارك) [26] حيث شبه بها الشهيدة الفلسطينية (رجاء حسن أبو عماشة) [27] وجعلها رمزًا عربيًّا للبطولة والتضحية، مشبِّهًا إيَّاها بالمناضلة الفرنسيَّة "جان دارك"، التي اعتبرت رمزًا قوميًّا للفرنسيِّين، فقال:

قَسَمًا بـ (جَانْ دَارْكِ) العُرُوبَةِ إنَّنَا دِنَّا بِمَا قُمْتُمْ وَلَنْ نَتَرَدَّدَا
قَسَمًا بِعَذْرَاءِ الرَّجَاءِ شَهِيدَةِ الـ أَرْدُنِّ مِنَّا الحُبَّ فِيكُمْ خُلِّدَا[28]

يتضح لنا أن صورة الآخر الفرنسي في شعر الأيوبي منعكسة عن آرائه القومية إزاء الاحتلال الفرنسي للبلاد العربية، فجاءت صورة سلبية عن هذا الآخر في معظم المواطن التي ورد فيها، بيد أن الشاعر أكد تخصيصه الذم بالفئة الاستعمارية دون سواها، والدليل على ذلك تمجيده لرمز الثورة الفرنسية جان دارك بالرغم من مواقف بلادها المخزية.

- **الآخر الألماني:**

بالرغم من قلة الإشارات المتعلقة بالآخر الألماني في قصائد الشاعر الأيوبي، بيد أن مجيء أحدها يمكن أن يوضح موقف الشاعر إزاء هذا الآخر الغربي، وذلك في قوله:

ألا تَرَى مَارِدَ (الجِرْمَانِ) قَدْ نُزِعَتْ مِنْ حَيِّهِ كُلُّ رُوحٍ مِلْؤُهَا البَطَرُ[29]

استعمل الشاعر اللفظ الأجنبي للآخر الألماني (الجرمان) منسوبًا إلى نعت سلبي يعني الغطرسة والتمرد (مارد الجرمان)، وقصد به القائد النازي هتلر الذي استطاع تأسيس الإمبراطورية النازية، لكن تهوره وأطماعه التوسعية أودت به إلى التهلكة. ويعد موقف الشاعر السلبي من الآخر الألماني غريبًا بعض الشيء قياسًا إلى آلية بناء الموقف السياسي العالمي لدى الشعب العربي، التي هي بحسب قرب الآخر الغربي أو بعده عن القضايا العربية، ونعلم أنه لم يكن لألمانيا أي تدخل استعماري في البلاد العربية.

- **الآخر الهولندي**: كانت هولندا في قائمة الدول الاستعمارية في منتصف القرن العشرين، حين سلكت نهج القوى العظمى في العالم آنذاك بالرغبة في اتساع رقعتها الاستيطانية وبناء امبراطوريتها الخاصة بها، لكن حظوظها لم تكن جيدة في البلاد العربية التي استأثر بها كل من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والإسبان، فلجأت إلى البحث عن مواضع جديدة للاستيطان في جزر إندونيسيا، فنظم الأيوبي قصائد ندد فيها بالمحتل الهولندي لإندونيسيا، فشبه الاحتلال الهولندي بإبليس في خبثه وسعيه للفساد والدمار، فقال:

قد خاب سعيك يا إبليسُ خيبته الـ ـكبرى وكيدك يا مفتونُ يا أشرُ
سبعين مليون صبرًا لا ولا تهنوا فإن درب العلا نحو العلا وعرُ[30]

إن الآخر الهولندي سلبي الحضور في قصائد الأيوبي، حيث إن المعيار الذي يعتمده الشاعر في بناء موقفه إنساني في المقام الأول، فكان في صف الضعيف المغلوب على أمره وصاحب الحق في مواجهة الآخر الغاصب المعتدي الطامع في خيرات البلدان الآخرى. ويمكن لنا تأويل أن موقف الشاعر الأيوبي إزاء ثورات التحرر في إندونيسيا إلى أن شعوب الجزر يتبعون الديانة الإسلامية، ولعل أن إقامة الشاعر المطولة في إندونيسيا لمدة عشرين عامًا جعلت مكانها في نفسه لا يقل عن مكانة الوطن الحقيقي له الكويت.

- **الآخر السويدي**: لم يكن لمملكة السويد تدخلات استعمارية واضحة في البلاد العربية، ولذلك فإن موقف الشاعر الأيوبي إزاءهم إيجابي يستند إلى الموضوعية، فمن ذلك قوله:

جاؤوا (لبرنادوت) في حلك الدجا وترصدوه بقاذف النيران
قتلوا رسول السلم وهو بنجوةٍ للسلم يسعى دائبًا متفاني
طعنوا سويدن في صميم فؤادها ولكم بغوا في معظم البلدان[31]

جاءت الأبيات في صيغة الرثاء للكونت السويدي (فولك برنادوت Folke Bernadotte) الذي ولد في 2 يناير 1895 باستكهولم، وهو ديبلوماسي من العائلة الحاكمة في السويد، ترأس الصليب الأحمر السويدي. واكتسب سمعة طيبة داخل القارة الأوروبية أهلته لأن يقوم بمهمة الوسيط الدولي للأمم المتحدة لنشر السلام. وقد وصفه الشاعر برسول السلم لتعاطفه مع الحقوق العربية المغتصبة حين اقترح وضع حد للهجرة اليهودية ووضع القدس بأكملها تحت السيادة الفلسطينية، ولهذا السبب تم اغتياله في القدس يوم السابع عشر من سبتمبر 1948م.

لا يبخس الشاعر الآخر الغربي حقه إن كان ذلك الآخر مستحقًا للتقدير والثناء، ويبدو من موقفه تجاه الكونت السويدي أن حكمه على الشخصية سلبًا أو إيجابًا مقترن بموقف هذه الشخصية من الأزمة العربية وقتئذٍ، ويشير هذا إلى موضوعية الشاعر من جهة، وإلى قوميته الوقادة من جهة آخرى.

- **الآخر الروسي:**

خارج إطار الدول الأوروبية، وقفت روسيا موقف الند في مواجهة الدول الاستعمارية الأوروبية، فجاء موقفها من القضايا العربية حياديًّا، بل إنها أبدت اعتراضًا على القرارات العسكرية الفرنسية والإنجليزية في البلاد العربية، بخاصة في حرب العدوان الثلاثي عام 1956م. ولعل هذا الموقف كان كفيلاً بأن يحظى الآخر الروسي بإعجاب الشاعر الأيوبي، فأورد عددًا من الشخصيَّات الروسية في سياق موقفها الإيجابيِّ من القضايا العربيَّة، منها قوله:

نَادَاهُ (بُولْغَانِيْنُ)[32] وَهْوَ بِلَنْدَنٍ مُتَأَرْجِحٌ فِي شَكِّهِ المُتَسَرِّبِ[33]

ويعود الحضور الإيجابي لشخصيَّة القائد السياسيِّ السوفييتي (بولغانين) بسبب دعواته إلى السلام في الشرق الأوسط وفي العالم، واتَّضح هذا الموقف بالإنذار الذي وجَّهه إلى فرنسا وإنجلترا قبيل العدوان الثلاثي على مصر، في سعيه إلى منع وقوع هذا العدوان. أمَّا ما يتعلَّق بتفاصيل موقف بولغانين فيستوقفنا ما نظمه الشاعر الأيُّوبيُّ مؤرِّخًا وممتدحًا الموقف الروسيَّ من العدوان على مصر، قال:

إِنْذَارُ بُولْغَانِيْنَ فِي الدُّنْيَا لَهُ دُرٌّ عَلَى المُسْتَعْمِرِ المُتَجَافِي
أَفْضَى بِقَولَتِهِ لِإِيْدِنَ وَهْوَ فِي مُوسْكُو القَوِيَّةِ حَاسِمًا لِخِلَافِ
قِفْ عِنْدَ حَدِّكَ إِيْهِ إِيْدِنَ خَائِبًا فَلَنَحْنُ أَنْصَارُ السَّلَامِ الوَافِي
وَتَصَايَحَ المُتَطَوِّعُونَ أَلا ارْفَعُوا أَيْدِيْكُمُ عَنْ سَائِرِ الأَطْرَافِ
خَلُّوا لِمِصْرَ سَبِيْلَهَا وَتَرَاجَعُوا حَتَّى تُحَقِّقَ أَعْظَمَ الأَهْدَافِ
وَدَعُوا الشُّعُوبَ تَسِيْرُ نَحْوَ مَصِيْرِهَا وكَمَا تَعِيْشُ بِسِلْمِهَا الرَّفَّافِ
قَالَ السَّلَامُ الأُرْيَحِيُّ مَقَالَهُ وَسَرَى مَسِيْرَ العِطْرِ فِي الأَجْيَافِ
أَلْدِيْنُ حُرٌّ، وَالشُّعُوبُ حُقُوقُهَا مَكْفُولَةٌ بِتَضَامُنِ الآلافِ[34]

كما استدعى الأيُّوبيُّ شخصيَّة سياسية سوفييتية أخرى في سياق الإيجابية، فأشاد بصنيع وزير الخارجيَّة السوفييتيِّ "ديمتري شبيليوف" لموقفه التاريخي تجاه رفضه مشروع قرار توجيه ضربة عسكريَّة لمصر إبَّان مؤتمر الأربع والعشرين الذي انعقد في لندن في السادس عشر من أغسطس **1956**م، وأرَّخ ما دار في هذا المؤتمر بقوله:

أَمَّا شَبِيْلُوفُ العَظِيْمُ فَإِنَّهُ طَرَقَ المَسَالِكَ رَائِعُ الأَوْصَافِ
هُوَ لِلسَّلَامِ العَالَمِيِّ حَمَامَةٌ بَيْضَاءُ ذَاتُ قَوَادِمٍ وَخَوَافِي
يَتَكَلَّمُ السِّلْمَ القَوِيَّ مُحَمِّسًا قَلْبَ الضَّمِيْرِ العَالَمِيِّ الصَّافِي
فَلْتَنْهَضِ الأُمَمُ الضَّعِيْفَةُ حُرَّةً هَذِي رِسَالَتُهُ بِدُونِ خِلَافِ
أَمَّا التَّعَايُشُ فَلْيَكُنْ بَيْنَ الوَرَى فِي الأَرْضِ سِلْمِيًّا بِلا اسْتِخْفَافِ
وَلْيَصْمُتِ المُسْتَعْمِرُونَ وَدُونَ مَا يَبْغُونَ صَارُوخُ الدَّمَارِ الكَافِي[35]

كما أن الشاعر أيد الآخر اليوغسلافي في رغبة شعبها بالانفصال عن الاتحاد السوفياتي عام 1948، فقال:

وأمة في يوغوسلافيا بنهضتها لدين أحمد منها الغرب مرتعبُ[36]

يقرن الشاعر الموقف الإيجابي من يوغسلافيا بنزعتهم الدينية الموافقة لمعتقداته، إضافة إلى وحدة الهدف الإنساني المشترك القائم على التحرر ونيل الاستقلال.

إن موقف الشاعر من الشخصيَّة مبنيٌّ على مواقفها إزاء القضايا العربيَّة، بعيدًا عن الأطماع السياسيَّة التي يمكن أن تستتر وراء هذا الموقف السوفييتيِّ، وبغضِّ النظر عن توجُّهات هذه الشخصيَّة في مجالات أخرى خارج الرؤية العربيَّة لها. وحريٌّ بنا أن نذكر أنَّ وزير الخارجيَّة السوفيتيِّ "شبيلوف" الذي حثَّ على السلام في الشرق الأوسط، خرقَ كلَّ حقوق الإنسان في قمعه للثورة المجريَّة في العام نفسه **1956**م، فضلًا عن اتّهامه باغتيال الأديب الفرنسيِّ "ألبير كامو" عام **1960**م.

-صورة الآخر في دول جنوب آسيا وجنوب شرقها:

عاش الشاعر الأيوبي واحدًا وعشرين عامًا من حياته في إندونيسيا، بتكليف من الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية، وعمل في الدعوة الإسلاميَّة، ونشرِ الثقافة العربيَّة، وامتهنَ التدريس في مدرسة الإرشاد بمدينة "سورابايا"، وكان يتقاضى راتبًا شهريًّا من الحكومة السعوديَّة في فترة إقامته هناك[37]. ثم عاد إلى الكويت عام 1950م نتيجة الثورة الإندونيسية في وجه المحتل الهولندي.

ولأن الشاعر هو لسان الحق الشاهد على الواقع، والناطق الإعلامي على الأحداث وقتئذٍ، فقد وقف مع الثوار الإندونيسيين في قضيتهم التحررية من الاحتلال الهولندي، ومن ذلك قصيدته "صُراخ الأحرار"[38] التي نظمها عام **1948**م، حيث دعا العالم إلى إصاخة السمع لهذه الثورة العظيمة التي قامت لدحر المحتلِّ الغاشم، فقال:

تَعَالَوا نَنْظُر الدُّنْيَا فَهَذِي اثْـ ـدُونِيسْيَا تَدْحَرُ الخَصْمَ الخَصِيْمَا
تَدُكُّ قُيُودَهَا قَيْدًا فَقَيْدًا لِتَمْسَحَ عَنْ حَقِيْقَتِهَا الهُمُومَا
وَتَفْحَصَ رَبْعَهَا دَارًا فَدَارًا لِتُرْدِي الخَائِنَ الوَغْدَ اللَئِيْمَا[39]

تتجلى صورة الآخر في موقف الشاعر إزاء الثورة الإندونيسية في جانبين اثنين، الأول موقفه من الآخر الإندونيسي، وهو موقف متعاطف مع الثوار الراغبين في الحصول على حرية بلدهم وطرد المحتل منه، والثاني يصور الآخر الهولندي بتعداد صفاته السلبية (الخائن، الوغد، اللئيم).

وفضلاً عن أبرز أحداث الثورة والشخصيَّات القياديَّة فيها، يتناول الأيُّوبيُّ الشخصيَّات من جانبين: الشخصيَّات السياسيَّة المفاوضة التي تدعو إلى الاستقلال من خلال المفاوضات مع هولندا بوساطة الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة. والشخصيَّات الثوريَّة التي تُقاتل في الميدان في مواجهة المحتلِّ الهولنديِّ.

فأمَّا الجانب الأوَّل، فقد مثَّل له الشاعر بالرئيس الإندونيسيِّ "أحمد سوكارنو"[40]، مُشيدًا بمواقفه البطوليَّة؛ فبعد انسحاب اليابان "قامت مجموعة من الوطنيِّين بقيادة سوكارنو بتشكيل حكومةٍ وطنيَّةٍ، وإعلان استقلال إندونيسيا، وتمَّ إعلان سوكارنو رئيسًا للجمهوريَّة، حيث قاد ثورة تحريريَّة على الهولنديِّين حتَّى عام **1949**، حين رضخت هولندا للمطالب الوطنيَّة، وانسحبت من معظم مناطق إندونيسيا معترفةً باستقلالها"[41]. قال في ذلك:

(سُوكَرْنُو) أَفْحَمَ الدُّنْيَا حِجَاجًا وَجَابَهَ فِي مَحَجَّتِهِ الظَّلُومَا
(سُوكَرْنُو) رُوحُهُ الجَبَّارُ لَمَّا تَصَدَّى قَدْ بَدَا العَلَمَ الحَكِيْمَا...
(سُوكَرْنُو) السَّيِّدُ المَحْبُوبُ أَخْزَى لِلاسْتِعْمَارِ شَيْطَانًا رَجِيْمَا
وَلِلحُرِّيَّةِ الحَمْرَاءِ لَبَّى نِدَاءَ الحَقِّ لا يَخْشَى الجَحِيْمَا[42]

حيث يتكلم الشاعر بلسان الرئيس (سوكارنو) إبّان حثِّهِ الشعب على الثورة لدحر المستعمر الهولنديِّ، ونداءاته المستمرَّة للخلاص والاستقلال، وأن يأخذ الشعب الإندونيسيُّ العبرة من استقلال جارته باكستان التي أصبحت دولة مستقلَّة عن الهند عام **1947**م، فقال:

هَلُمُّوا أَسْمِعُوا الدُّنْيَا دُعَانَا لِكَي نَدَعَ العَدُوَّ بِنَا عَلِيْمَا...
صَبَرْنَاهَا قُرُونًا صَاخِبَاتٍ إِلامَ يُرِيْدُنَا البَاغِي غَنِيْمَا؟
لَنَا فِي الأَرْضِ إِخْوَانٌ تَصَدَّوا لأَعْوَالِ الرَّدَى مِنْ أَنْ تَسُومَا
(بِهِنْدِسْتَانَ) إِعْصَارٌ عَتِيٌّ يُثِيْرُ عَلَى العِدَا الرِّيْحَ العَقِيْمَا[43]

ويأتي على ذِكر محمَّد علي جناح؛ أوَّل رئيسٍ لدولة باكستان المستقلَّة، والذي رأى ضرورة أن يكون لمسلمي الهند وطن قوميٌّ خاصٌّ بهم، وذلك بعد المضايقات التي كانوا يتعرَّضون لها من الهندوس آنذاك،[44] فقال الأيُّوبيُّ:

كِفَاحُ (عَلِي جِنَاحَ) بِنَا حَرِيٌّ عَلَى أَنْ نَسْتَهِلَّ لَهُ رَقِيْمَا
جِهَادٌ صَيَّرَ الشَّرْقِيَّ بَعْثًا جَدِيْدًا عَانَقَ البَعْثَ القَدِيْمَا
فَهَبَّ بِرُوحِهِ شَرْقًا قَوِيًّا وَظَلَّ بِعِلْمِهِ عَقْلاً سَلِيْمَا
فَقِفْ لِلسَّيِّدِ الهِنْدِيِّ وَانْظُرْ زَعِيْمَ الشَّعْبِ مَنْ قَهَرَ الخُصُومَا[45]

وقد بدأ الكفاح المسلَّح في مواجهة الهجمات الهنديَّة على المسلمين في كشمير وأطراف باكستان بعيد إعلانها دولة مستقلَّة؛ ففي السنة الأولى لحكم محمَّد علي جناح **1947**م اندلعت أوَّل حرب بين الهند وباكستان، في محاولة من كلا البلدين لبسط سيطرته على كشمير.

وقد بدأت الحرب حينما أعلن حاكم كشمير الهندوسيُّ الانضمام إلى الهند لقمع ثورة الأغلبيَّة المسلمة الراغبة في الانضمام إلى باكستان، فتدخَّل الكثير من قبائل قندهار الأفغانيَّة بإيعاز من محمَّد علي لنصرة المسلمين الكشميريِّين، والوقوف معهم في مطالبهم. فتوجَّهَ سوكارنو -على لسان الأيُّوبيِّ- إلى هندستان "باكستان"

شارحًا حال المأساة الإندونيسيَّة ومطالبًا بالنصر والوحدة لطرد المستعمر. يقول الأيوبي:

(أَهِنْدِسْتَانُ) أُخْتُكِ (إِنْدُونِيْسِيَا) تُقَاسِي مَا تُقَاسِيْنَ الكُلُومَا
فَشُدِّي أَزْرَهَا فَالْيَومُ يَومٌ يُحَتِّمُ لِلتَّضَامُنِ أَنْ يَدُومَا
جَزَائِرُ قَدْ تَكُونُ لَهُمْ قُبُورًا إِذَا لَمْ يَتْرُكُوا الظُّلْمَ الوَخِيْمَا[46]

ويشير الشاعر إلى أنَّ دعوات سوكارنو لاقت آذانًا صاغية من الشعوب الإسلاميَّة المجاورة لإندونيسيا، فهبَّت لنصرة قضيَّتها من حيدر أباد إلى دلهي إلى بنجاب إلى أفغانستان، فيقول في ذلك:

إِلى (حَيْدَرْ أَبَادَ) لِرَبْعِ (دِلْهِي) إِلَى (بَنْجَابَ) نَسْتَبِقُ الخُرُومَا
وَفِي (أَفْغَانِنَا) الشَّهْمِ ارْتِقَاءٌ عَجِيْبٌ يُثْلِجُ القَلْبَ الكَلِيْمَا
بِهَا لِلإِتِّحَادِ الصَّرْحُ يُبْنَى لِيُبْرَمَ فِيْهِ ذَا الأَمْرَ الصَّرِيْمَا[47]

ويشير الشاعر إلى حقيقة الوحدة الإسلاميَّة التي بدأ ينادي بها المسلمون في دول شرق آسيا وأفغانستان وباكستان، وحلمهم بتحقيق هذه الوحدة، فيقول:

جَاشَتْ (بِأَفْغَانَ) أَرْوَاحٌ يُلَوِّعُهَا شَوْقٌ إِلى عِزَّةِ الإِسلامِ مُلْتَهِبُ[48]

وهو إذ يستحضر ذكر أفغانستان فلأمرين اثنين: الأوَّل حرصه على توثيق الثورة الأفغانيَّة لقيام دولة إسلاميَّة موحَّدة. والثاني استثارة مشاعر الإندونيسيِّين وحثُّهم على النهوض لطرد المستعمر الهولنديِّ من بلادهم، وأن يركبوا ركب التحرُّر الذي انتهجه أبطال أفغانستان، فقال في ذلك:

فَلْتَلْتَحِقْ إِنْدُونِيسْيَا بِالأُلَى اِنْدَفَعُوا كَأَنَّهُمْ فِي سَبِيْلِ المُرْتَقَى شُهُبُ[49]

نلاحظ تركيز الشاعر على الجانب الدينيِّ على حساب الجانب الثوريِّ التحرُّريِّ، وبدا هذا الأمر جليًّا من خلال عدَّة قرائن أشارت إليه، كاستحضاره حركة الانفصال الهنديَّة التي أنتجت دولة باكستان الإسلاميَّة، حيث قال:

في الهند صوتٌ لنصر الحق منفجرٌ كما تفجَّرَ بركان له شعبُ[50]

ثمَّ ثورة أفغانستان التي آزرت حركة الانفصال الهنديَّة، ثمَّ إنَّ الشاعر قرنَ السلاح بالقرآن، الكتاب المقدَّس، ولعلَّه بذلك يشحذ النفوس بدافع دينيٍّ بعد أن خشي ضعف الحافز الوطنيِّ التحرُّريِّ. وممَّا قاله مخاطبًا الشباب الإندونيسيِّ:

وَنَادِ بِجَاوَا عَرُوسِ البِلاد شَبَابًا يَهِيْمُ بِلَيْلٍ عَكِرْ
وَقُلْ لَهُمُ المَجْدُ فِي كَفِّنَا بِجَنْبِ الكِتَابِ العَزِيْزِ فُثُرْ[51]

وبعد ذلك يأتي الشاعر إلى الجانب الثاني من الشخصيَّات المؤثِّرة في حرب الاستقلال، أي تلك التي تقاتل في الميدان، والتي تشكِّل الجبهة العسكريَّة في المقاومة في موازاة الجبهة السياسيَّة التي كان من شأنها التفاوض لنيل الاستقلال، ومن إشادته ببطولة قائدها ستومو[52] قوله:

وَفِي المَيْدَانِ أَبْطَالٌ شِدَادٌ شَبَابٌ يَتْبَعُونَ لَهُمْ زَعِيْمَا
(سُتُومُو) ذَلِكَ الأَسَدُ المُرَجَّى يَخُوضُ لَظَى المَعَارِكِ لَنْ يَحِيْمَا

يُكَبِّرُ فِي الوَغى! اللهُ أكْبَرْ! فَيَخْطِفُ صَوْتُهُ القَلْبَ الأثِيْمَا
يَؤُمُّ جُيُوشَهُ لِلهَولِ يَسْرِي وَيَسْبَحُ كَالعُقابِ إذَا أسِيْمَا[53]

يتضح لنا أن موقف الشاعر الأيوبي إزاء الآخر بحسب تصنيفه العرقي أو الهوية القومية موقفٌ موضوعي متزن قائم على مدى علاقة الآخر باغتصاب الأراضي العربية واحتلالها، فهو في نقده للآخر المحتل والتنديد الشديد لأعماله الاستبدادية والاستعمارية، لم يخرج عن موضوعيته في الإشادة بإنسانية بعض الشخصيات الغربية الداعية إلى الحرية والسلام، ويبدو لنا أن القضية العربية هي مركز إطلاق الأحكام لدى الأيوبي، حيث إن معظم الشخصيات ذات المواقف الإيجابية من وجهة نظره كانت إما مدافعة عن القضايا العربية، أو مشتركة مع العرب في السعي نحو الحرية والحصول عليها ومحاربة المحتل أينما وجد وكيفما كان.

ثالثًا: صورة الآخر بحسب الهوية الدينية

يدرك المطلع على دواوين الشاعر الأيوبي العقلانية والموضوعية في الطرح لديه، وإعطاء كل ذي حق حقه من المدح أو الذم بما يستحق، فالإنسانية تحتل المقام الأول لديه في تصنيف البشر بحسب القرب أو البعد من الأخلاق والاستقامة والقيادة، فمن ذلك أبياته التي جعلها خالصة لمدح الزعيم الهندي (المهماتا غاندي) الذي لم يكن يتعلقًا بدين دون سواه، فقد كان مؤمنًا بجميع الأديان على اختلافها، محترمًا حدود القداسة لدى كل طائفة دينية، لكنه عاش حياته مكافحًا داعيًا إلى الحرية، كما طالب الحكومة الهندوسية باحترام حقوق الأقلية المسلمة، فلم ترق دعواه لبعض الفئات الهندوسية المتطرفة، فاغتالوه بإطلاق النار عليه في الثلاثين من يناير عام 1948م، وفيه يقول الأيوبي مادحًا دون نزعة دينية إزاءه:

عاشَ غاندي في كفاحٍ صابرًا حيث شقَّ الدربَ في شوكٍ وعتمهْ
راء معنى الروح فانسابت له قطراتُ النور فاستنهض شرقهْ
قوة تجرفُ ذُلاً صارخًا في جهاد الهند أبدى الحق صدقهْ
إيه غاندي أرضك التبر التي أنت منها التاج حمَّلتَ المشقهْ
رمقتكَ الهندُ حتى كنتهُ صوتها الصارخَ من أول رمقهْ[54]

غير أن بعض المواقف السياسية الغربية ذات التأثير المباشر على وحدة الأرض واللغة والمعتقد في البلاد العربية جعلت الشاعر الأيوبي يتعرض لهذه الفئات الغاصبة المعتدية بهويتهم الدينية، وفضح أطماعهم باتخاذ الدين وسيلة للاستعمار، ومن ذلك نتناول الآخر في الهوية الدينية كما يأتي:

- **الآخر اليهودي:**

إن الحضور اليهودي في الذهن العربي حضور سلبي في عمومه، نتيجة اقتطاعهم فلسطين من الجسد العربي لتكون وطنًا قوميًّا لليهود المشردين في أنحاء العالم، وقد عبر الأيوبي بغضب عن موقفه من اليهود عمومًا في قوله:

إني أرى في ضمير الغيبِ في هجر الطـ ـغام قبرًا دوينَ المقدس النائي
قبرًا يضمُّ يهودَ الأرض أجمعهمْ في مربض الصمتِ موسومًا بأسواءِ[55]

لم يستثن الشاعرُ أحدًا من اليهود في الأرض، ولم يأت على ذكرها بوصفها ديانة، أو من منظور طائفي إزاءهم، بل إنهم لجؤوا إلى نقدهم من هذه التسمية التي حاولوا من خلالها احتلال فلسطين والسيطرة عليها، فالنقد للآخر اليهودي متعلق بالسياسة والخصومة الحربية في المقام الأول، وليس له علاقة بالديانة اليهودية كدين مختلف أو منبوذ مثلاً. والدليل على ذلك أنه الشاعر الأيوبي –ومعظم الشعراء العرب أيضًا- لم يتعرضوا لطقوس العبادة اليهودية بالنقد، بل اعتبروا هذا شأنًا خاصًّا بهم. ومن أمثلة نقد الآخر اليهودي المغتصب، قول الأيوبي:

وَاليَومَ أَشْعَلْتُمُ نَارًا تُؤَجِّجُهَا أَيْدِي (اليَهُودِ) وَهُمْ لِلفِتْكِ دُوْبَانُ[56]

وقد أوجد بعض المثقفين والسياسيين مصطلحًا أكثر تحديدًا ودقة في نعت الآخر اليهودي المحتل لفلسطين، حفاظًا على عدم الانجراف إلى الإساءة إلى ديانة كاملة، وهو مصطلح "الصهاينة" للتشديد على خص الفئات التي تشاركت معًا تحت راية صهيون للهجرة إلى فلسطين والإقامة فيها رغمًا عن العرب. فقال الأيوبي:

إنَّ الصَّهَاينَةَ الأوبَاشَ حَرْبَتُنَا نِيْرَانُهَا في بلادِ العُرْبِ تَتَّقِدُ[57]

كما أشار الأيوبي إلى نقطة مهمة في هذا الموضع، وهي رغبة الصهاينة بتهويد فلسطين العربية، والقضاء على إرثها التاريخي المسيحي والإسلامي، فقال:

هذي فلسطين بين العرب يذبحها الشـ ـشذاذ ذبحًا تعاني اليوم تهويدا
عثى بها الغول من سكسون فارتعشت رعبًا وحل بها من كان مطرودا[58]

إن نظرة الشاعر نحو الآخر اليهودي منطقية ومسببة، فالآخر اليهودي هو الذي اختار الدين هوية يلج بها الحدود العربية، وهو الذي قام على الطائفية والعنصرية حين نادى بوطن قومي ليهود العالم في بقعة طاهرة تخص المسلمين.

- **الآخر النصراني:**

رأى الأيُّوبي أنَّ أسبابًا دينيَّة كانت وراء غزو الآخر الفرنسي للجزائر ومن ثمَّ تونس، وهي الحملات التبشيريَّة التي تدعو العرب إلى اعتناق الدين المسيحيِّ والتخلي عن الدين الإسلامي، فقال:

جَاءَ (الفرَنْسِيْسُ) اللئَامُ بدَعْوَةٍ قالُوا: لإنْجِيْلِ (المَسِيْحِ) تَحَوَّلُوا
وَأتَى (الجَزَائِرَ) ثُمَّ (تُونُسَ) جَوْرُهُمْ تُعْسًا لَهُمْ مَا فُكِّرُوا وَتَأَمَّلُوا[59]

ثمَّ شدَّدَ الأيُّوبيُّ على أنَّ الدين المسيحيَّ يبرأ من هؤلاء الطغاة المستعمرين الذين حلّلوا سفك الدماء في أقطار المغرب العربيِّ، بيدَ أنَّهم اتَّخذوا الدين ذريعة للاحتلال والاستعمار، فقال:

اللهُ يَبْرَأُ وَ(ابْنُ مَرْيَمَ) مِنْهُمُ وَكِتَابُهُ (الإنْجِيْلُ) ذَا يَتَنَصَّلُ60

لا يحمل الشاعر ضغينة تجاه أتباع الديانة النصرانية، بالرغم من قناعته التامة بأن الآخر الفرنسي المستعمر للجزائر يحاول اتخاذ الدين ذريعة للسيطرة على

الجزائر شعبًا وأرضًا وثقافة، وقد أشار إلى ذلك بنقده للحملات التبشيرية التي أطلقها الفرنسيون قبيل احتلالهم للجزائر.

وأتى الشاعر على ذكر المسيح في موضع آخر يبين مدى انفتاحه وعدم تعصبه للمعتقد، حيث قال:

ويح العروبة من بلاء صارخ مادام في وطن المسيح الأخسرُ[61]

الأخسر هو الاحتلال الصهيوني، ووطن المسيح هي أرض فلسطين، مع أن المتعارف عليه أن القدس من أهم الرموز الإسلامية، وطالما اتكأ عليها الشعراء والخطباء لحفز الشعوب الإسلامية وحثها لمواجهة المستعمر الصهيوني، بيد أن الشاعر الأيوبي استعمل رمزًا حقيقيًّا آخر وهو كنيسة المهد في بيت لحم، الرمز المقدس في الديانة المسيحية، وهو بهذا يعبر عن ذكائه وفطنته وعدم تحيزه، حيث أراد بهذا حفز الشعوب العربية المسيحية لتقف مع الإسلامية في مواجهة المحتل للأرض التاريخ والحاضرة والدين.

رابعًا: أثر لغة الآخر في لغة الشاعر الأيوبي

بالرغم من موقف الأيوبي الحازم إزاء الآخر المستعمر، فإن لغة الشاعر توضح تأثره بثقافة الآخر ولغته، فممَّا نظمه في معركة بور سعيد، والنصر العربيِّ على قوَّات العدوان الثلاثي في هذه المعركة، حيث رفع العلم المصريِّ على الأرض المحرَّرة، قوله:

وَ(بُوْرْتُ سَعِيْدُ) لِلتَّارِيخُ فَجْرٌ جَدِيْدٌ وَهْيَ لِلشُّهَدَاءِ بُرْجُ
عَلَيْهِ رَفْرَفَ العَلَمُ المُفَدَّى لَهُ الأَرْوَاحُ فِي الدُّنْيَا تَحُجُّ
(جَمَالٌ) أَشْبَعَ الدُّنْيَا جَمَالاً لَهُ بَيْنَ الضِّيَاءِ المَحْضِ أَوْجُ[62]

يستدعي الأيُّوبيُّ المفردة الأجنبيَّة لميناء بور سعيد، والذي يعود بنا إلى أصل هذا المسمَّى؛ حيث "port" تعني: "ميناء" في اللغة العربيَّة، ومن هنا جاءت تسميتها بهذا الاسم. ولعلّ أن المدينة قد سميت بذلك اشتقاقًا من المعنى الإنجليزي لها، وذلك في فترة الانتداب البريطاني.

ومن أمثلة هذا التأثر اللغوي، قوله أيضًا في قصيدة تحررية مناهضة للاستعمار الهولندي في إندونيسيا:

(فَنِيْذِرْلاَنْدَ) أَوْلَى أَنْ تُرَاعَى لِتُصْلِحَ مَا وَهَى وَلِتَسْتَقِيْمَا[63]

نلاحظ تركيز الشاعر الأيوبيِّ على استعمال الألفاظ الأجنبيَّة كما يُنطق بها في لغتها الأصل، من دون أن يلجأ إلى تعريبها باللفظ الذي عُرفت به في اللغة العربيَّة، فنيذرلاند تعني الأرض الواطئة، وهي اسم (هولندا) في اللغة الأجنبية الأصل، وتكتب "Netherlands"، وهو بذلك يمزج اللغتين العربيَّة والأعجمية في قالب خطابي واحد، ويرى في الشعر غاية أسمى من التركيز على لغة واحدة، بل إنَّ الهدف والمضمون والغرض أهمُّ من العناية بتهذيب الشكل بما يتوافق مع اللغة الفصيحة. وقد أورد الشاعر "نِيْدِرْلاَنْدَ" بالدال المكسورة، لكن نطقها وكتابتها في

لغتها الأصل يُرجِّحُ أن يكون الشاعر قصد بها "نِيْذِرْلانْدَ" بالذال المكسورة، ولعلَّ كتابتها بالدال كان تصحيفًا طباعيًّا.

ويظهر هذا التأثر مرة أخرى في قصيدة نظمها بعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية، مشيرًا فيها إلى القائد الألماني النازي "أدولف هتلر" دون أن يذكره بالاسم الصريح، حيث قال:

أَلا تَرَى مَارِدَ (الجِرْمَان) قَدْ نُزِعَتْ مِنْ حَيِّهِ كُلَّ رُوحٍ مِلْؤُهَا البَطَرُ[64]

استعمل الشاعر المصطلحات الإنجليزيَّة فعرَّبها بلفظها الأصليِّ، بدلاً من استعمال لفظها الذي تكتب به في العربيَّة، فهو يستعمل "الجرمان" المأخوذة من "Germany" بدلاً من "ألمانيا" أو "الألمان"، إلَّا أنَّه آثر اللفظ الأجنبيَّ غير المعرَّب على الآخر المعرَّب.

ومن ذلك أيضًا استعمال الشاعر لفظ (الجابان) Jaban بالنطق الإنجليزي للمفردة بدلاً من استعمال اللفظ المعرب المتعارف عليه في اللغة العربية (اليابان)، كما في قوله:

أَلا يَكْفِيْكِ مَوْعِظَةً هُولَنْدَا بَأَيَّامٍ طَعِمْتِ بِهَا الرُّجُومَا
أَلا يَكْفِيْكِ مَا لاقَيْتِ يَومًا مِنَ (الجَابَان) مَا يرْمِي الوُجُومَا[65]

وقوله أيضًا:

وجرَّ (جابانَ) نحو النار يدفعها نحو الدمار إلى ماخورة اللؤمِ[66]

بيد أنه استعمل المفردة المعربة في موضع آخر حيث قال:

يخاصر الدين عصر النور في أفق الـ ـيابان مرحى لقومٍ للعلا وثبوا[67]

حيث يمدح الشاعر التآلف الديني وتوافقه مع بناء الحضارة في امبراطورية اليابان، وكأنه يلمح بأن سبب تقدمهم متأتٍ من هذا التآلف، وابتعادهم عن النزعات الدينية الطائفية التي تهدم الحضارة.

كما استعمل الشاعر بعض مفردات اللغة الإندونيسية في شعره، كما في قوله داعيًا شعب إندونيسيا إلى التحرر:

سَتَحْيَا حُرَّةً رَغْمَ الأَعَادِي وَحَقَّ لَهَا بِأَنْ تَرِدَ النَّعِيْمَا
تُنَادِي (مَرْدَكَا) صَوتًا يُدَوِّي بِدُنْيَا النَّاسِ هَدَّارًا فَخِيْمَا[68]

وفي قوله أيضًا:

هَبَّتْ تُنادي (مَرْدِيكَا) بِفُؤادِها كالرعدِ لم تَحفلْ بسطوةِ قائلِ[69]

إن استعمال الشاعر لفظ (Merdeka) التي تعني (حريَّة) كما هي في الأصل، إنما جاء ليضفي على النصِّ مزيدًا من الواقعيَّة، ويضع المتلقّي في قلب الحدث، ويشدَّ انتباه السامع إلى طبيعة الندءات التي صدحت بها حناجر الأحرارُ إبَّان إعلان ثورتهم. ومَرْدَكَا كلمة إندونيسيَّة تعني حرِّيَّة، واستعملها الشاعر لما تحمله من جزالة وأثر لا يقلُّ عن أثر نظيرتها في اللغة العربيَّة.

ومن ذلك ما نظمه في مدح القائد "جول جمال"[70] بإدراجه مفردات ومسميات حربية أجنبية دخيلة على اللغة العربية الفصيحة، فقال:

كَأَنَّ جُوْلَ عَلَى سَيْفِ الحِمَى قَدَرٌ تَخِرُّ مِنْهُ عَلَى البَاغِيْنَ أَهْوَالُ
لَمَّا امْتَطَى صَهْوَةَ (الطُوربِيْدِ) مُنْتَشِيًا بِفَخْرَةِ المَجْدِ ثَابَ الجُنْدَ إِدْلَالُ
جُنْدُ الفَرَنْسِيس في (جَانْ بَارَ) أَدْهَلَهُمْ جُوْلُ العَظِيمُ الذي عَنْ دَرْبِهِ مَالُوا[71]

والطوربيد مصطلح عسكري تسمى به الصواريخ البحرية، لكن الشاعر دمج في توظيفه الحداثة بالأصالة، فجعل الطوربيد كالفرس، والبطل الضابط كالفارس. أما في قوله: (جان بار Jean Bart) فهي بارجة فرنسيَّة الصنع، صمَّمها المهندس الفرنسيُّ كامي روجرون، وكانت تعد من أقوى البارجات في ذلك الوقت، وتحمل أوَّل رادار في العالم، حيث لم تكن أي آلةٍ حربيَّة متحرِّكة تحمل أيَّ رادار في ذلك الوقت.

وقوله في قصيدة أخرى، منتقدًا الغربيِّين، ومستغربًا بسؤالٍ استنكاريٍّ أيضًا لجوء الغرب إلى هذه الهمجيَّة في الحروب، بدلاً من الحوار الذي يحضُّ عليه العلم في جامعاتهم المرموقة، كجامعة (كامبريدج) في بريطانيا:

أَيْنَ العُقُولُ التِي رَاضَتْ ثَقَافَتَهَا (كَمْبرْجُ) لَمْ تُغْنِهَا الآيَاتُ وَالنُّذُرُ؟[72]

ومن أبرز المصطلحات الأجنبية الدخيلة على لغة الشاعر الأيوبي، أو التي تأثر بها، قوله في قصيدة ساخرة ناقدة:

المترفونَ الوضيعونَ الأُولى وردوا من الصغار زعاقَ السمِّ والدَّاءِ
في (الكاديلاكِ) مع العلجانِ رائدهمْ أوهامُ كأسٍ وقيثارٍ وحمقاءِ[73]

حيث استعمل الشاعر اللفظة الأجنبية (الكاديلاك) وهو إحدى الشركات الأمريكية لصناعة السيارات، ويعد الشاعر بهذا الاستعمال من أوائل من عربوا هذه المفردة بإدراجها في الشعر العربي المعاصر، مع الإشارة إلى أن هذا الأسلوب ليس دخيلاً على شعره، إنما هو موجود منذ عصر الفتوحات الإسلامية، واختلاط الشعراء العرب بالحاضرة في بلاد فارس والروم.

الخاتمة

نتيجة الأحداث السياسية العصيبة التي شهدها النصف الأول من القرن العشرين؛ حيث عانت معظم البلاد العربية صنوفًا متنوِّعة من ويلات الاستعمار الأجنبيِّ، فقد ترسخت في الذهن العربي صورة الآخر المستعمر بسلبية وحقد منقطعي النظير، فانبرى الشاعر الأيوبي والشعراء العرب ذووا النزعة القومية للتنديد بالآخر الغربي الغاصب للأرض العربية، واستنهاض العرب بمختلف طوائفهم ومعتقداتهم للوقوف صفًّا واحدًا في وجه المستعمرين ودحرهم.

فلم يكن حضور الآخر الغربي في شعر محمود شوقي الأيوبي تقليديًّا نمطيًّا، بل كان حضورًا فاعلاً ومؤثرًا ينبثق من فلسفة خاصة به تخلق تلازمًا بين الدال والمدلول، وتجسد فكره وآراءه إزاء الآخر بشقيه الإيجابي والسلبي. ولعل أن

حضور الآخر على اختلافاته العرقية والدينية في شعر الأيوبي، وآرائه المنصفة إزاءه سلبًا وإيجابًا تؤكد موضوعية الشاعر وتجرده في الطرح، على أنها تشير أيضًا إلى الحس القومي العالي لديه، ومناهضته الاستعمار الغربي للدول العربية، والدول الإسلامية، والدول غير الإسلامية أيضًا، فالأيوبي نصير الحق أينما وجد، وصوت العدالة المؤيد للحرية حقًّا لكل شعوب الأرض التي تعاني من ويلات الاستعمار وجرائمه.

جاءت الصورة السلبية للآخر أكثر حضورًا من الصورة الإيجابية، وكان الواقع وقتئذٍ يضج بالهمجية الغربية والتعسف إزاء الأطماع التوسعية وإعادة عصر الإمبراطوريات الاستعمارية إلى الواجهة السيادية مجددًا. فجاءت الصور السلبية متناولة الآخر الفرنسي والبريطاني والألماني والهولندي واليهودي، وجاءت الصور الإيجابية متمثلة في مواقف الآخر السويدي والروسي الإيجابية من الأحداث العسكرية في البلاد العربية، وبخاصة إزاء العدوان الثلاثي على مصر عام 1956م، والآخر الإندونيسي والباكستاني والأفغاني، وتأييد ثوراتهم الانفصالية.

وللوهلة الأولى نتلمس مظاهر موضوعية الأيوبي وعدم تحيزه من خلال إشادته ببعض رموز الثورة الفرنسية، كالمناضلة جان دارك، بالرغم من موقفه المعادي للآخر الفرنسي المستعمر، بيد أن إشادته بالزعيم الروسي (شبليوف) إزاء موقفه المناهض للعدوان الثلاثي على مصر، ارتبطت بواقع المناسبة فحسب؛ وفي حقيقة الأمر فإن التاريخ السياسي يؤكد إجرامية الزعيم الروسي ووحشيته في العام نفسه الذي وقف فيه موقفًا إيجابيًّا من القضايا العربية.

في المحصلة، إن الشاعر الأيوبي صوت الحق والحرية أينما وجد، بنى آراءه إزاء الآخر الغربي المستعمر انتصارًا للقضية العربية، وآراءه إزاء الآخر الروسي بحسب القرب من القضية العربية أو البعد عنها، بغض النظر عن الأسباب التي تدفعه إلى هذا الموقف منها. كما أن شدة انسجامه بالواقع السياسي آنذاك أرخى بظلاله على لغته الشعرية، فوجدناه يستعمل مفردات القاموس الأجنبي في أكثر من موضع، مما جعل نصوصه أقرب إلى الواقع الموصوف وألصق به.

نتائج البحث

1 - إن موقف الشاعر الأيوبي من الآخر الغربي قرين مواقف الآخر من القضايا العربية في النصف الأول من القرن العشرين، حيث كانت معظم البلاد العربية ترزح تحت وطأة الاستعمار الغربي.

2 - كان الشاعر الأيوبي موضوعيًّا في إطلاق أحكام الإيجابية والسلبية للآخر الغربي، فذم وانتقد وندد بتصرفات الآخر الغربي المستعمر، وأشاد وخلد المواقف الإيجابية للآخر المعادي للاستعمار والباحث عن السلام أينما كان.

3 - الآخر الغربي المستعمر في موضع النقد عند الأيوبي أيًّا كان مكانه الجغرافي، سواء في البلاد العربية أو خارج إطار الوطن العربي في دول آسيا ودول الاتحاد السوفييتي.

4 - تأثرت لغة الشاعر الأيوبي بعاطفته القومية ونزعته السياسية المتابعة للأحداث والمعتركات والقضايا التحررية في كل بقاع العالم، إضافة إلى إلمامه باللغات الأجنبية مثل الإندونيسية والإنجليزية، فاستعمل بعض هذه المفردات في سياق شعره.

توصيات البحث

1 - طباعة ونشر دواوين الشاعر المخطوطة: "الينابيع"، و"الصَّباح الجديد"، و"أحلام الخليج"، و"أغاني الحمى"، و"فردوس الشعر"، لتتاح للباحثين والمهتمين بالشعر العربي في الكويت، وإقامة دراسات بحثية فيها.

الهوامش والمراجع

[1] - ابن منظور، **لسان العرب**، ط1، دار صادر، بيروت، 2003م، مادة (أخر).
[2] - شاكر عبدالحميد، **الحلم والرمز والأسطورة**، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988م، ص 223.
[3] - نور الدين أفاية، **الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر الإسلامي الوسيط**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000م، ص 50.
[4] - ابن منظور، **لسان العرب**، (مادة عرب).
[5] - **المرجع نفسه**، (مادة عجم).
[6] - انظر ترجمته في: مجموعة مؤلفين، **معجم البابطين لشعراء العربيَّة في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ط1، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ج 19، ص 691.
[7] - ابن منظور، **لسان العرب**، (مادة: عرق).
[8] - أظهر الشاعر الكويتي خالد الفرج اعترافه بالخلافة العثمانية في قوله:

غَدَا العَاهِلُ التُّركِيُّ وَهْوَ خَلِيْفَةٌ
وَباسمِ أمِيرِ المُؤمِنِينَ يُلَقَّبُ
يَرَى الضَّعْفَ وَالأخْطارَ مُحْدِقَةً بِهِ
وَأظْلَمَ في عَيْنَيْهِ شَرْقٌ وَمَغْرِبُ

انظر: خالد الفرج، **الخَبَر والعِيَان في تاريخ نَجْد**، تحقيق ودراسة: عبد الرحمن بن عبد الله الشقير، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2000م، ص 82.
[9]- محمود الأيُّوبي، **ألحان الثورة**، ط1، الكويت، 1969، ص 417. [بنو أرطغل: الأتراك].
10 - خليفة الوقيان، **القضيَّة العربيَّة في الشعر الكويتيّ**، ط2، الكويت: شركة مطبعة الفيصل، 2012، ص 109.
[11] - جمال باشا، أحمد السَّفَّاح 1872- 1922: كان أحد ثلاثة من العصبة العسكريَّة التي حكمت تركيَّا في الحرب العالميَّة الأولى. عُيِّن حاكمًا على سورية فعامل الأقليَّة الأرمنيَّة بمنتهى الشدَّة، وعمل على تهجير مئات الأسر العربيَّة إلى الأناضول، وكان قاسيًا على المناضلين العرب بالسجن والتعذيب والتشريد. وفي عام 1922 اغتاله شابٌّ أرمنيٌّ في مدينة تفليس. انظر: عبد الوهَّاب الكيَّالي، **موسوعة السياسة**، ط1، بيروت: المؤسَّسة العربيَّة للدراسات والنشر، 1981، ج2، ص74.
[12]- **ألحان الثورة**، ص 417- 418.
[13] - **المصدر نفسه**، ص 200- 202.
[14]- **المصدر نفسه**، ص 414.
[15]- **المصدر نفسه**، ص 207.
[16] - **المنابر والأقلام**، ص 03.
[17] - **ألحان الثورة**، ص 061- 107.
[18] - حِلفُ بَغداد: اتفاقيَّة تعاون عسكريٍّ وأمنيٍّ بين العراق وتركيَّا بوحي من الدوائر الاستعماريَّة الغربيَّة في فبراير عام 1955، وانضمَّت إليها كلٌّ من بريطانيا وباكستان وإيران في العام نفسه، وعُرف باسم حِلف بَغداد، مَقرِّ الحلف. انظر: عبد الوهَّاب الكيَّالي، **موسوعة السياسة**، ج1، ص 548.

19- ألحان الثورة، ص 80.

[20] - **المصدر نفسه**، ص 199.

[21] - **المصدر نفسه**، ص 201.

[22] - **المصدر نفسه**، ص 201.

[23] - **المصدر نفسه**، ص 279.

[24] - **المصدر نفسه**، ص 71.

[25] - **المصدر نفسه**، ص 60.

26 - جان دارك Jeanne.d'Arc (1412-1431)، مناضلة فرنسيَّة قاتلت من أجل حرِّيَّة بلادها في القرن الخامس عشر. وفي عام 1919 قرَّرت الحكومة الفرنسيَّة اعتبار يوم الأحد الثاني من شهر مايو عيدًا قوميًّا تكريمًا لذكرى جان دارك". انظر: عبد الوهَّاب الكيَّالي، **موسوعة السياسة**، ج2، ص 21.

[27] - رجاء حسن أبو عماشة (1939- 1959م)، شابَّة فلسطينيَّة ولدت في مدينة يافا. واستشهدت في أثناء اقتحامها مبنى السفارة البريطانيَّة على رأس مظاهرة قامت احتجاجًا على حلف بغداد.

[28] - **ألحان الثورة**، ص 125.

[29] - **المصدر نفسه**، ص 228.

[30] - **المنابر والأقلام**، ص 28، 29.

[31] - محمود الأيوبي، **المنابر والأقلام**، أعده وقدم له: عبدالله زكريا الأنصاري، ط1، مطابع الوطن التجارية، الكويت، 1982، ص 125.

[32] - نيكولاي بولغانين Nikolai Bulganin (1895-1975)، سياسيٌّ سوفييتيٌّ، وصل إلى مستويات السلطة العليا في سنٍّ متأخِّرة نسبيًّا. ويبدو أنَّ تقدُّمه في الزعامة يعود إلى الاعتراف بكفاءته الإداريَّة العالية أكثر ممَّا يعود إلى منجزاته الحزبيَّة، اقترن اسمه بالإنذار السوفييتيِّ لإنجلترا وفرنسا إبَّان العدوان الثلاثيِّ على مصر 1956". انظر: عبد الوهَّاب الكيَّالي، **موسوعة السياسة**، ج1، ص 610.

[33] - **ألحان الثورة**، ص 44.

[34] - **المصدر نفسه**، ص 97- 98.

[35] - **المصدر نفسه**، ص 98- 99.

[36] - **المنابر والأقلام**، ص 41.

[37] - مجموعة مؤلِّفين، **معجم البابطين لشعراء العربيَّة في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ط1، الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2008، ج 19، ص 691.

[38] - **ألحان الثورة**، ص 328.

[39] - **المصدر نفسه**، ص 329.

[40] - أحمد سوكارنو (1901- 1970) أوَّل رئيس لإندونيسيا بعد استقلالها عن هولندا، ودام حُكمه بين العامين 1945- 1967، كان أحد الزعماء الإندونيسيِّين السبعة الذين شكَّلوا الحزب الوطنيَّ الإندونيسي في السادس من يوليو 1927.

[41] - عبد الوهَّاب الكيَّالي، **موسوعة السياسة**، ج1، ص 355- 356.

[42] - **ألحان الثورة**، ص 331- 332.

[43] - **المصدر نفسه**، ص 333.

[44] - فـي اجتمـاع العصـبة الإسـلاميَّة الـذي عُقـد عـام 1937، طالـبَ محمَّـد علـي جنـاح بالاستقلال التـامّ للمسلمين ضـمن اتحـادٍ فـدراليٍّ هنـديٍّ إسـلاميٍّ، ثـمَّ صـعَّد مطالبـه فـي اجتمـاع للعصـبة بلاهـور عـام 1940، ودعـا إلـى تقسـيم شـبه القـارَّة الهنديَّـة إلـى كيـانين همـا: الهنـد وباكسـتان، علـى أن تضـمَّ الأخيـرة كـلَّ مسـلمي الهنـد، وأرسـل عـام 1944 رسـالة إلـى المهاتمـا غانـدي يوضِّـح لـه فيهـا رؤيتـه لهـذه القضـيَّة، جـاء فيهـا: "نحـن نُصـرُّ ونتمسَّـكُ بـأن يكـون المسـلمون والهنـدوس أمَّتـين كبيـرتين، وذلـك طبقًـا لأيِّ تعريـف أو معيـار للأمَّـة. نحـن أمَّـةٌ لمائـة مليـون مُسلم، وعـلاوة علـى هـذا، نحـن أمَّـة ذات أمـور متميِّـزة فـي الثقافـة والحضـارة واللغـة والأدب والفـنِّ والهندسـة المعماريَّـة والأسـماء والمصـطلحات الخاصَّـة، والشـعور بـالقيم والعـدل والتـاريخ والملكـات والطمـوح. وباختصـار، لنـا وجهـة نظرنـا المتميِّـزة عـن الحيـاة، ومـن الحيـاة. ووفقـا لجميـع مبـادئ القـانون الـدوليِّ، نحـن أمَّـة". وقـد لقيـت هـذه الـدعوة قبـولاً لـدى مسـلمي الهنـد عـام 1946، ووافقـت عليهـا بريطانيـا. وفـي الرابـع عشـر مـن أغسـطس 1947، أعلـن محمَّـد علـي جنـاح قيـام جمهوريَّـة باكسـتان الإسـلاميَّة، وأصـبح أوَّل رئيس لهذه الجمهوريَّة الوليدة.

[45] - **ألحان الثورة**، ص 333.

[46] - **المصـدر نفسـه**، ص 333- 334. [جزائـر: أي الجـزر الإندونيسـيَّة، ويبلـغ عـددها أكثـر من ثلاثة آلاف جزيرة، تشكّل جميعها دولة إندونيسيا].

[47] - **ألحان الثورة**، ص 336.

[48] - **المنابر والأقلام**، ص 41.

[49] - **المصدر نفسه**، ص 41.

[50] - **المصدر نفسه**، ص 40.

[51] - **المصدر نفسه**، ص 48.

[52] - سـوتومو معـروف أيضًـا بـ "تومـو بونـغ" (1920- 1981) زعـيم عسـكريٌّ إندونيسـيٌّ شارك في الثورة الإندونيسيَّة، ولعب دورًا كبيرًا في معركة سورابايا عام 1945.

[53] - **ألحان الثورة**، ص 334- 335.

[54] - محمـود شـوقي الأيُّـوبي، **هـاتف مـن الصـحراء**، ط2، دار قرطـاس للنشـر، الكويـت، 2005م، ص 200.

[55] - **المصدر نفسه**، ص 158.

[56] - **ألحان الثورة**، ص 201.

[57] - **المصدر نفسه**، ص 65.

[58] - **هاتف من الصحراء**، ص 128.

[59] - **ألحان الثورة**، ص 353.

[60] - **المصدر نفسه**، ص 353.

[61] - **هاتف من الصحراء**، ص 47.

[62] - **ألحان الثورة**، ص 33- 34.

[63] - **المصدر نفسه**، ص 329.

[64] - **المصدر نفسه**، ص 228.

[65] - **المصدر نفسه**، ص 330.

[66] - **المنابر والأقلام**، ص 97.

[67] - **المصدر نفسه**، ص 41.

[68] - **ألحان الثورة**، ص 329.
[69] - **هاتف من الصحراء**، ص 264.
[70] - جول يوسف جمال (1934-1956) شابٌّ سوريٌّ من مواليد مدينة حمص. تخرَّج في البحريَّة المصريَّة، وقاد "الطوربيد" الذي فجَّر به المدمِّرةَ الفرنسيَّة "Jean Bart" في حرب السويس،وعلى متنها 88 ضابطًا و2055 جنديًّا بحريًّا فرنسيًّا.
[71]- **ألحان الثورة**، ص 86-87.
[72] - **المصدر نفسه**، ص 228.[University.of.Cambridge جامعة عريقة في مجال العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّات والفيزياء. تقع في كامبريدج في المملكة المتَّحدة. تأسست عام 1209م، وهي عضو في مجموعة راسل للجامعات، وعضو في رابطة الجامعات البحثيَّة الأوروبيَّة. حصلت الجامعة على تسع وثمانين جائزة نوبل، وذلك أكثر من أيَّة جامعة أخرى في العالم].
[73] - **هاتف من الصحراء**، ص 152، 153.